التظاهرة الثقافية تبدأ مسيرتها في جامعة قطر

أ.د عبدالباسط عبد المعطي: الاعتماد العربي الجماعي على الذات هو الضمانة لانجاز الاستقلال الحضاري

رجاء جارودي: علينا ان نستحضر المبادىء الجليلة التي صنعت حضارة الاسلام

بدأت مساء امس بجامعة قطر اولى جلسات العمل لندوة «الثقافة العربية .. الواقع وآفاق المستقبل» حيث قدم الاستاذ الدكتور عبدالباسط عبدالمعطي رئيس قسم الاجتماع بجامعة قطر دراسة بعنوان «التبعية الثقافية في الوطن العربي.. في الآليات والمجالات والتفسير» وعقب استراحة قصيرة القى الاستاذ الدكتور رجاء جارودي دراسة قصيرة بعنوان «كيف يساهم الاسلام في الحضارة الانسانية؟

التبعية الثقافية كان نصيبها من كتابات الباحثين العرب حول واقع التبعية في الوطن العربي قليلا.. ويلاحظ على هذا القليل انه قدم رؤى ومواقف ايديولوجية اختلط فيها الشعار بالخطابة بهجاء الحضارة الغربية.. ورغم تسليمنا باهمية الرؤى الايديولوجية وخطورة السعي نحو التحرر منها فانها لاتكفي لتحديد سبرة العمل لمواجهة التبعية الثقافية. فالتخطيط الجاد لابد له من رصيد معرفي علمي تاريخي ومعاصر.. والا تحولت الرؤى الايديولوجية الى مجرد استهلاك للزمان والشعار. بهذه الكلمات بدأ الاستاذ الدكتور عبدالباسط عبد المعطي دراسته حول التبعية الثقافية في الوطن العربي التي قال عنها انها استطلاعية.

ولأن الدراسة استطلاعية طابعا وهدفا فقد حاولت الاجابة على عدد من الاسئلة الهامة الضرورية علميا ومعرفيا لتطوير فهم الهيمنة والتبعية الثقافية في الوطن العربي.

السؤال الاول:

هل الآليات الثقافية التي استخدمتها دول المركز مع الوطن العربي، هي نفسها التي استخدمتها مع غيره من العوالم الاخرى؟ ام ان ثمة آليات نوعية، خص بها الوطن العربي دون غيره؟

السؤال الثاني:

كيف تفاعلت ـ من خلال امثلة مختارة لمجالات التبعية ـ العوامل والاليات الخارجية والظروف الداخلية في تحقيق التبعية الثقافية في الوطن العربي

السؤال الثالث:

ماهو الوزن النسبي لدور كل من العوامل الخارجية والداخلية في تحقيق التبعية الثقافية؟

أبعاد ومجالات

وكمحاولة لتقديم اجابات علمية على هذه الاسئلة صممت الدراسة لاستعراض الابعاد والمجالات التالية:

اولا: الرؤية النظرية للدراسة بالتركيز على مفهومي الثقافة العربية والتبعية الثقافية واهم القضايا النظرية الضرورية لتناول موضوعات الدراسة وابعادها.

ثانيا: استطلاع اهم الاليات التي استخدمت لتحقيق الهيمنة وتبعية الثقافة العربية لثقافة المركز.

ثالثا: اختيار عدد من المجالات لاستطلاع تفاعل وعمل اليات الهيمنة والتبعية وكان التركيز على: الاعلام والثقافة الاستهلاكية وخطاب الحياة اليومية لمبررات سبقت الاشارة اليها.

رابعا: مشروع لتفسير التبعية الثقافية في الوطن العربي.

لم يبدأ الاستاذ الدكتور في الحديث عن الرؤى النظرية حيث تناول بالشرح مفهوم الثقافة العربية، الثقافة بين الغزو والهيمنة والتبعية، ثم ينتقل لوسائل الهيمنة «التبعية وآلياتها».

عقب ذلك انتقل للحديث عن مجالات الهيمنة على الثقافة العربية وتبعيتها حيث تعرض لموضوع وسائل الاعلام وتضبيط الثقافة التابعة واهم آليات الهيمنة الاعلامية اهم مؤشرات التبعية الاعلامية ثم ينتقل للحديث عن موضوع تعميم ثقافة الاستهلاك وآلياتها مشيرا الى ان ذلك يعد احد مجالات تدويل النظام الرأسمالي العالمي.

استخلاصات.. وإجابات

ثم ينتهي الى عدد من الاستخلاصات التي يقول انها تمثل رغم ايجازها اجابات على التساؤلات التي طرحتها الدراسة في مقدمتها حرصنا ان نأتي معها، بعدد من القضايا ذات الاهمية بالنسبة لموضوعنا.

اولا: مع ان الهيمنة والخضوع فعلان تاريخيان تكررا عبر تاريخ البشرية الا ان التبعية تعد حالة نوعية من حالات هذه الهيمنة، استخدمت فيها آليات لم تعرف من قبل، هدفت الى افقاد المجتمع التابع ـ وساعد في هذا عوامل داخلية ـ السيطرة على شروط تجدده الذاتي وتميزه الحضاري ومساهمته في الحضارة الانسانية وهدفت هذه التبعية على المستوى الثقافي الى افقاد الثقافة القومية تميزها وقدرتها على التطور والتجدد.

■ أ.د عبدالباسط عبد المعطي

■ رجاء جارودي

ثالثا: تباين الوزن النسبي لتفاعل كل من العوامل الخارجية والداخلية في تهيئة شروط التبعية بين مرحلة واخرى من مراحل التاريخ العربي الحديث والمعاصر وبين قطر عربي واخر حسب حالة تطوره الاجتماعي والاقتصادي ومشكلاته وازماته وحسب مجالات التبعية المختلفة وقطاعات العمل الثقافي وسياساته ومؤسساته.

الحوار بين الحضارات

رابعا: يعد الحوار والتفاعل بين الحضارات من حقائق التاريخ الانساني وظواهره: فلا توجد حضارة انسانية استمرت مع التاريخ واطردت وهي في حالة انغلاق فمخاطر الانغلاق ـ مع انه غير ممكن ـ لاتقل من حيث تهديدها للحضارة الانسانية عن الانفتاح والاستغراق الكسول في الحضارات الاخرى.

ان الحوار الحضاري الايجابي والفعال يتطلب فهم الذات الحضارية كمقدمة لفهم الاخر الحضاري والعكس يكاد يكون صحيحا وهذا الفهم لايتم بمدح الذات او الاخر الحضاري ولابهجاء الذات او الاخر الحضاري انه يتطلب درسا وفحصا للذات الحضارية قدراتها وامكاناتها والمعوقات التي تحول دون تجددها كما يتطلب فهم قدرات الاخر وامكاناته وجوانب قوته وحركته.

ان الحوار مع الحضارات الاخرى خاصة الحضارة الغربية ليس اختيارا وانما ضرورة من ضرورات التجدد الذاتي وامتلاك شروط السيطرة على مقومات هذا التجدد. وهو فعل مرتهن بأسس لامفر من بلورتها:

الأول: صياغة اساس مفاهيمي وعملي للاستقلال الحضاري الذي لايعني الانغلاق وانما يعني فهم الذات والاخر والتفاعل معه.

الثاني: ان البداية المنطقية والممكنة لتاسيس الاستقلال الحضاري تبدا بتحديد معوقات تحرير الحضارة وانطلاقها نحو تميزها وبتحرير الانسان العربي لتعبئته ودفعه نحو المشاركة الفاعلة والابداع.

الثالث: ان التراث الحضاري بالمعنى الشامل، وفي القلب منه التراث الروحي ركيزة للاستقلال الحضاري والابداع النوعي وقد فعلت الحضارة الغربية نفسها هذا فهي ليست عقلانية على نحو مطلق، واستكملت ما نقصها من مقومات التراث الحضاري.

الرابع: ان البحث في الحوار مع الحضارات الاخرى، هو بحث في المستقبل ويتطلب فهم المستقبل ودرس المتغيرات الدولية العلمية والتقنية والسياسية واستيعابها واستخلاص شروط الافادة منها للتجدد والاطراد.

الاعتماد على الذات

الخامس: ان الاعتماد العربي الجماعي على الذات هو الضمانة لتعبئة الجهود الفكرية والعلمية والسياسية والاقتصادية لانجاز الاستقلال الحضاري ومرامي التجدد الذاتي وتفرض المتغيرات الدولية اعتبار هذا الاعتماد هدفا لعقود قادمة توفر من خلالها الشروط الموضوعية الواقعية لهذا الاعتماد والا اضفنا خبرات عكسية مما لدينا من خبرات في هذا السياق.

السادس: العلم والمشاركة بانماطها خاصة السياسية وسواء كانت الشورى او سميت الديمقراطية هما من الاسس الضرورية للتفاعل الحضاري الايجابي فالفعل الثقافي الايجابي بحاجة الى فهم وتخطيط علمي لتحريك مقومات الثقافة القومية نحو امتلاك شروط تجددها واستقلالها.

رجاء جارودي

وعقب استراحة قصيرة القى الاستاذ الدكتور رجاء جارودي بحثه بعنوان «كيف يساهم الاسلام في الحضارة الاسلامية؟».. الذي بدأه قائلا: ان عملية جرد اسهام الاسلام في الحضارة الانسانية تضطرنا من منطلق التصور الغربي الى مراعاة ثلاثة مناهج فكرية هي:

الوعي بالتقهقر الغربي الراهن وتحليل اسبابه.

فحص اسباب اشعاع الاسلام الحالي والمفارقة مع دوره الثانوي على المسرح العالمي اليوم.

النظر في شروط صحوة اسلامية مباركة تجعل هذا الدين روحا للكفاح ضد الحركات المشوهة التي تقود العالم لحتفه.

وبعد ان استعرض اسباب التقهقر الغربي واسباب اشعاع الاسلام الحالي والمفارقة مع دوره الثانوي على المسرح العالمي اليوم انتقل الحديث حول النقطة الثالثة وهي النظر في شروط صحوة اسلامية مباركة تجعل هذا الدين روحا للكفاح ضد الحركات المشوهة التي تقود العالم لحتفه.

ولكن الاهم في العلوم الاسلامية ليس فقط المنهج التطبيقي ولا الاكتشافات العظيمة بل الصلة بين هذا المنهج التطبيقي الذي اعطانا القدرة للسيطرة على مشاكل الطبيعة والمجتمع وبين امكانيات الانسان لمعرفة الغايات وتحديد الاهداف من عمله وحياته. اي ان الجدل الفلسفي المتأمل في تلك العلوم ابلغ المسلم ان الوحي الالهي هو جوهر الحياة ومعناه العميق. وهذا هو اصل الفلسفة الاسلامية.

وتعتبر في هذا الصدد الجامعة الاسلامية بقرطبة في القرن العاشر مثلا يحتذى علينا نحن احياء عملها الصالح وتنمية علومها حتى تساهم في انعاش الفكر الانساني على طريق الله سبحانه.

فمن هذه الجامعة الفيحاء بقرطبة من القرن العاشر الى القرن الثالث عشر مبادئ اشعت الثقافة على القارات الثلاث بأشكالها الوضيئة:

بالعلوم: باشاعة المنهج التطبيقي وربط الاسباب بالمسببات والمواد ببعضها

بالحكمة: بربط الصلة بين الخالق والمخلوقات في عالم متوازن يسعى الى هدف سام محدد وله معنى جليل

بالايمان: بما ان العلم لايبلغ الازل وبما ان الحكمة لاتفسر الابد. فان الايمان هو الضمير الحي الذي ينفي الحدود ويتجه نحو المطلق.

وهذا المنهج الايماني الذي يقود العلوم هو الذي يراعيه عصرنا الراهن حتى لايقودنا العلم بتقنياته الى حتفنا المحتوم اي اليأس والعبث.

ففي نهاية هذا القرن نقف ضد عبادة المال واسواقه واحكامه وضد ذوبان انساننا في عالم مادي منحجر حتى نعطي للملايين من البشر معنى لوجودهم وقانونا الهيا يوجه التاريخ ويحرك الهمم. ولكن المسلمين اليوم يقدمون صورة مشوهة عن ذلك القانون الالهي اي عن الشريعة بحيث يعسر على العالم فهمها.

فعبارة الشريعة لاتظهر في القرآن الا مرة واحدة: «ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها» الجاثية الآية ٤٥ ويذكر الله سبحانه وتعالى بالوحي الذي اوحاه لموسى عليه السلام في التوراة ولعيسى عليه السلام في الانجيل وان فيهما هدى ونورا.

«إنا انزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين اسلموا» المائدة آية ٤٤

«وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة واتيناه الانجيل فيه هدى ونور..» المائدة ٤٦

وتبين هذه الايات النيرات ان المقصود من الشريعة هو المنهج الذي وضعه الله لنا حتى نسير فيه نحو الله سبحانه وتعالى وليس المقصود فحسب حدود الله ضد السرقة والزنا وقضايا الميراث والمرأة فهذه الحدود مختلف عليها في التوراة والانجيل والقرآن حسب العصور والمجتمعات التي ارسل فيها الله رسله.

فالشريعة اذن هي الطريق والاتجاه الروحي والاخلاقي الانساني الخالد الذي خطه الله سبحانه وتعالى لكل الاديان السماوية وليس فقط مجموع الحدود او القوانين التي تناسبت مع كل عصر وكل مجتمع على حدة.

الغايات السامية

وتلك الغايات الإلهية السامية هي التي اوحاها الله لسائر انبيائه وهي تتلخص في مجملها كالآتي:

الله هو المالك

الله هو الآمر

الله هو العليم

هي شريعة الله الخالدة ذكر بها سبحانه كل الانبياء وانطلاقا منها وضعنا حدودا وضبطنا قوانين واقمنا المجتمعات:

فالله وحده المالك: مما يجعل كل ملكية بشرية نسبية وليس الانسان سوى متصرف مؤقت فيما يملكه الله يسحبه منه اني يشاء اذا لم يستثمره في سبيل الله.

الله وحده الآمر: مما يجعل كل امر بشري نسبيا ومما يلغي كل نظام يدعي العظمة والاحزاب الواحدة والكاريكاتور المشوه للديمقراطيات الغربية، وذلك تحت نداء: الله اكبر.

الله وحده العليم: مما يجعل كل علم بشري نسبيا فمعرفة الانسان دائما محدودة اي مرتبطة بالنظر الانساني المحدود ولا معرفة الا لله سبحانه وكل ماعداه موضوع موضع الشك والنقد. مما يلغي محاكم التفتيش والقهر.

وانطلاقا من هذه المبادىء الكريمة يمكن ان نقدم نحن المسلمين للعالم بأسره شريعة تنقذهم من ضلال المادية وعبادة المادة.

الوفاء لروح القرآن

ولابد، من اجل ذلك ان نضع كل آية قرآنية في موضع نزولها وفي ظروف نزولها حتى نتمكن من نهضة اسلامية شاملة. فقد كان الاسلام منتصرا ومشعا لانه لم يدع احتكار الحقيقة وحده ولم يعلن اختلافه الجذري عن الرسالات السماوية. بل اكد الاسلام انه الدين المكمل للرسالات والقائم اساسا على التوحيد وهو الذي يجعل الملك والامر والعلم كلها نسبية والانسان مسئولا عن نفسه وعن مجتمعه اي انه الذي يقر القوانين والضوابط ضمن شريعة الله الخالدة.

ومسئوليتنا اليوم هي وضع فقه للقرن العشرين عوض انتقاء بعض آيات من القرآن الكريم ندعي انها هي الشريعة.

علينا ان نستحضر المبادىء الجليلة التي صنعت حضارة الاسلام وعظمته وصموده حتى نكون اوفياء لروح القرآن الكريم.

فرفض تقليد الغرب ليس بالضرورة تقليد الماضي فالقرآن علينا ان نقرأه بعيون الاحياء لابعيون الموتى في تقليد اعمى. بل الاسلام يدعونا الى استنباط مناهج لخلاصنا انطلاقا من الشريعة الالهية الخالدة نحو حياة جديدة سعيدة. فالنهر يخلص لينبوعه الاصلي وهو يصب في اليم.

متابعة:
خيري نور الدين